اللغة والثقافة(*)

للدكتور كمال محمد بشر

يقرر الدارسون أن هناك خمسة عناصر أساسية يمكن اتخاذها معيارا لتصنيف البشرية إلى أمم ولوضع الفوارق بين هذه الأمم وتعيين الخواصّ المميّزة لكل منها .

هذه العناصر هى : الجنس المشترك (أو الأصل) - والدين والقومية واللغة والثقافة ، وللغه والثقافة بوجه خاص دور بارز فى هذا التصنيف والتحديد ؛ إذ هما بمثابة المرآة العاكسة لكل أنواع النشاط الإنسانى فى هذه الأمة أو تلك وهذا المجتمع أو ذاك ، وهما فى الوقت نفسه بمثابة المرشد الذى يمكن أن يؤكد هذا التفريق أوَ ينفيَه .

ولموضوع اللغة والثقافة فى مجتمعنا العربى أهمية خاصة ، إذ إن وضعهما أو بناءهما يحتاج إلى نظر ودرس ، كى نتعرف على حقيقة الأمر فيهما ، بالعَود إلى بناء هذا الجانب أوذاك ، ونكشف عن مكوّناته ونخبُرَ هندسته ودرجاتِ التناسق والتكامل بين هذه المكوّنات .

ولعلّ أولَ ما نلاحظه فى هذا الشأن هو أن بناءنا اللغوى والثقافى بناءٌ ينقصه التكامل والتجانس أو الانسجام بين وحداته . ففى هندسته نشاز ، وفى جوانبه ارتفاعات وانخفاضات ، وفى مادته أمشاج وأخلاط من العناصر . وفى عبارة موجزة نقول : إن هُوّيتنا اللغوية والثقافية هوية مهزوزة ، يشوبها نوع من التفكك والاضطراب ، وضربٌ من التنافر والتناقض ، ومن ثمّ يسوغ لنا أن نقرر أن ليست لنا هُويةٌ لغوية وثقافية موحّدة . فاللغة العربية (وأعنى بها اللغة المنطوقة) تعانى من بلبلة الألسن وتعدد اللهجات والرطانات التى تحُسب بالعشرات بل بالمئات . وكذلك ثقافتنا القومّية لم تنجُ من هذه التفرّق والتمزّق ، ولم تسلم من الخلط وخلخلة البناء : فهناك ثقافة الخاصة وخاصة الخاصة ، وثقافةُ العامة وعامةِ العامة ، وثقافةُ رجل الشارع وثقافةُ أهل الحرف والصناعات . وهذه الثقافات (وإن اتفقت فى بعض الثوابت ، وما أقّلها)

(*) هذا البحث أصل لمحاضرة ألقيت بجامعة الكويت فى أوائل عام ١٩٩٠ ، وكانت معدّة للنشر (مع غيرها من محاضرات الموسم الثقافى لهذه الجامعة) فى نهاية العام الدراسى ، ذلك العام الذى انتهى بمأساة الغزو العراقى للكويت الذى أتى على الأخضر واليابس هناك ، وقد رأينا نشره هنا بوصفه رؤية لواقع ما قبل " المأساة " .

تدفع بأصحابها إلى مسارات من السلوك متباينة ، وتوجههم اتجاهاتٍ متباعدة ، ومن ثم يصعب الالتقاء عند نقطة الهدف القوميّ بعامة ، وأعنى بها فكرة الانتماء إلى الوطن المعين . وكذلك بالنسبة للغة .

وفى رأينا أن فى دراسة العلاقة بين اللغة والثقافة فرصة طيبة لترتيب الأمور والكشف عن مدى التأثير والتأثر بينهما ، حتى يكون النظر فى أحد الجانبين (أو كليهما وهو المفروض) أداة علمية صالحة للتعرف على الجانب الآخر .

ونبادر فنقول إن بين اللغة والثقافة علاقةً وثيقة ، أو هى بتعبير آخر - علاقة الجزء بالكل ، فاللغة أخص والثقافة أعم ، أو قل : إن بينهما علاقة التأثير والتأثر . أما بيانُ مدى هذا التأثير والتأثر والكشفُ عن جذور هذه الجزئية والكلية فى العلاقة بينهما فيحتاجان إلى بحوث مستفيضة مستقلة توجّه جهودها نحو دراسة البناء اللغوى للمجتمع ، بكل مكوّناته وأبعاده وصوره وخواصّه ، وتطبق المنهج ذاته على النظر فى النشاط الثقافى لهذا المجتمع نفسه ، حتى يمكنَ الإتيانُ فى هذا السبيل بنتائج علمية دقيقة .

ولسوف نكتفى هنا بالإشارة إلى بعض صور التأثير والتأثر ومظاهره ، لتكون بمثابة توجيهٍ أو نقطة انطلاق للمهتمين بالشئون اللغوية والثقافية فى مجتمعنا ، مركّزين على الجانب اللغوىّ ، لأهميته عندنا فى هذا المقام ، ولخفاء هذا الجانب على بعض الدارسين .

فى البدء نقول : إن اللغة ليست مجرد ضوضاء أو أصواتٍ تلقى فى الهواء ، وإنما هى - فى حقيقة الأمر وجوهره - تجسيد حىّ لكل معارف الإنسان وخبرته ، ودليلُ شخصيته وهُوِيّتهِ الثقافية . وهى بمثابة الكاشف عن مكنون النفس والعقل . ذلك المكنون الذى يُترجَم - باستدعاء المواقف والظروف - إلى واقع حقيقى فى صورة أحداث فعليّة . وهذا الكشف باللغة يتمثل فى كل ظواهرها : فى أصواتها وطرائق نطقها وأدائها ، ودرجاتِ توافقها وتآلفها ، وفى مفرداتها من حيث اختيارُ صيغها وكلماتِها ونوعيةُ هذا الاختيار ، ومن حيث تراكيبها وما يتصل بذلك من ضم الكلام بعضه إلى بعض ، ونظم هذا الكلام وهندسته ، وغير ذلك من تعليق الكلم بعضه ببعض وتوافقه وتآلفه . ويظهر هذا الكشف كذلك فى معانى الكلام ودلالاته ، ومستويات

هذه المعــانى والدلالات من حــيث الوضــوحُ والغـمـوض والعـمـقُ والسطحـيـة ، ومن حـيث الابتـذالُ والمعـرفـةُ والجـهل ، إلى آخر مـا يمكن أن نتـصـوره أو نتـوقـعـه من أسـاليب الكلام وألفاظه .

وينبـغى أن نشـيـر كـذلك إلى أنّ اللغـة - شأنها فى ذلك شأن الثقافة - خاصّةٌ إنسانية ، وأن لها - كما للثقافة - جانبين من الوجود : وجود بالقوة ووجود بالفعل . فالأول طاقة أو قـدرة كـامنة فى النفس ، أو مـركّب ملتّم من القـواعـد والقـوانين ، تكشـفـه وتنبىء عنه الترجمة الفعلية الواقعة من الفرد أو الأفراد فى الظرف المعين ، وهذا هو الوجود بالفعل . وهذا الجـانب الثـانى - وهو الوجـود الواقع الفـعلىّ - سـابق على الجـانب الأول ، جـانب القواعد والقوانين المخزونة فى ذهن الجماعة . فـمن المقرر أن الأحداث اللغـوية الفـعليـة تقع أولا وتكرارها ووقـوعـهـا مـرات ومـرات فى سيـاقـاتها الاجتـمـاعيـة تَحدُثُ انطباعـاتٌ لها تستـقـر فى ذهن الجـمـاعـة أو الفرد ، وتصبح بمثـابة الأنماط العـامـة التى يمكن أن تُسـتـدعى وتخرجَ حقيقة واقعة فى التعامل فى ظروفها المناسـبـة . ومـهـمـا يكن الأمـر فـالجـانبـان مترابطان ومتلازمان وجوداً وعدما ، واستقرار، وتطورا ، والتـجـديد فـى الأول - وهو جـانب الطاقـة أو القـواعـد والقـوانين - يأتى نتـيـجـة للتـعـديل أو التـغـيـيـر والتطور فـى الثـانى ، ولكن لا يصـبح مـقـبولاً أو سائداً إلا إذا كـان مطرد الوقـوع واتفـقت عليـه الجـمـاعـة اللغـوية المعّينه وقبلتْه .

ومـعـنى هذا أن الجـمـاعـة اللغـوية المعّينـة قـد تتـفـق فى جـملة القـواعـد والقـوانين الضـابطة للغتها . وهو اتفاق فى الأساسيّات والجوهريات اللغـوية ، ونعنى بذلك المعـانى العـمـيـقـة أو الطاقـة اللغـوية ، ولكن أصـحـاب هذه اللغـة يخـتـلفــون فى الآراء والتطبــيـق الفــعلى ، والسلوك اللغوى بعامة .

فنحن مـثـلا متـفـقون فى أن لنا لسـاناً واحداً يسـمى بطريق التـجـوُّز " اللغـة العـربيـة " ، ولكنا مع ذلك نخـتلف اخـتــلافــاً بارزا فى التحـقيق المادّى لهذا اللسان ، ويكفى أن ننظر نظرة مـتأملة إلى ما يجرى فى الشارع العربىّ من لهـجات ورطانات وصـور للكلام مـختلفـة . والملاحظ كـذلك أن الاتفـاق أو الافـتـراق يزيد وينقص بســبب الزمـــان والمكان والظروف المحـيطة بالمجتـمع . وهذا يقـودنا إلى القـول

بعدم وجود اتفاق تامّ أو ما أشبه فى كل أنماط السلوك اللغوى فى البيئة الواحدة . إن الاختلاف ملحوظ من فرد إلى فرد آخر ، بل إن الفرد الواحد يختلف مع نفسه أحيانا فى سلوكه اللغوى وفى طاقته اللغوية كذلك .

وهذا الاتفاق والافتراق فى البيئة اللغويّة المعيّنة ينطبقان بصورة أو بأخرى على الوضع الثقافى لهذه البيئة ؛ حيث تلحظ اتفاقاً فى الثوابت والجوهريات ، واختلافا ملحوظا فى الأداء والسلوك والتعامل الثقافى . فالقيمة الثقافية المعّينة قد يكون متّفقا عليها فى بيئة اجتماعيّة ما ، ولكنها تختلف فيما بين أفراد هذه البيئة فى التحقيق المادّى لها . فالملبس مثلا ذو معنى أو قيمةٍ متفقٍ عليها ، هى الوقاية والزينة وسترْ الصورة ، ولكنه يختلف هنا وهناك من حيثُ صوره وأشكاله والوانُه وتقديرُه وقطعُه (أى تفصيله) .

ولنا هنا أن نضربَ مثلا واحداً بسيطا يشير إلى حقيقة هذا الاتفاق والافتراق فى الجانبين اللغوى والثقافى بجناحيهما القيمّىِ والأدائى " الأبوّة " مثلاً قيمة لغوية ثقافية ، ولكن يعّبر عنها وتؤدّى فى مجتمعنا بصور متعددة ، فهناك " دادى" وبابى وباها ،أبويا ، بيّى ، إلى جانب الصيغتين الفصيحتين : أبى ووالدى . وهناك من الأمثلة ما لا نستطيع إحصاءه فى هذا المقام ، وكلها تدل دلالة قاطعة على مدى التداخل والتشابك بين اللغة والثقافة تأثيرا وتأثرا .

وتظهر هذه العلاقة قوية واضحة فى السلوك اللغوى والثقافى معا . فأنت تستطيع أن تحكم - نوع حكم - على ثقافة الرجل من محصوله اللغوى المتمثل أساساً فى ألفاظه وعباراته وطرائق نطقه وأدائه الصوتى . وقديما قال شاعرهم :

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده

فلم تبق إلا صورة اللحم والدم

ونحن نقول : لسان الفتى كل الفتى ، لأن الكلام الذى يؤديه اللسان لا يصدر من فراغ ، وإنما يستمد مادته ومكوّناته من مخزون عقله ونفسه ، أى من محصوله المعرفى والثقافى . وقد قالوا فى اللغة الانجليزية " لسانك أنت " " Your Tougue is You "

وكذلك الأمر بالنسبة للثقافة ، حيث تؤثر ثقافة الرجل ودرجتها ومستواها على محصوله اللغوى بصورة أو بأخرى .

ومعنى هذا ، كما قررنا سابقا أن العلاقة بين اللغة والثقافة علاقة جدٍ وثيقة فوحدة اللغة أو تكاملها يستتبع وحدة الثقافة وتكاملها وكذلك تنعكس وحدة الثقافة أو التماثل والتقارب فى مكوّناتها على النشاط اللغوى للمجتمع المعين . ولكن هذه العلاقة ليست لزومية أو ضرورية فى كل الأحوال ، إذ ليس من النادر أن تكون اللغة (فى عمومها) واحدة فى حين تختلف الثقافات أو تتنوّع بصورة أو بأخرى . فاللغة العربية (بمعناها المطلق) لغةُ العرب جميعا ، ومع ذلك نلمس شيئا من الفروق فى البناء الثقافى بين مجتمع عربى آخر . وكذلك الحال بالنسبة للغة الانجليزية ؛ فهى لغة الإنجليز والأمريكان ، ولكنا – فى الوقت نفسه – نلاحظ خواصّ ثقافيةً مميزة لكل أمة منهما .

وحقيقة الأمر أن الارتباط بين اللغة والثقافة – وحدةً أو تنوعا – يتوقف على درجة الاختلاف اللغوى والثقافى معاً . فكلما كان الاختلاف كبيرا بين اللغات كان الاختلاف بين الثقافات واضحاً . وتقلّ درجة الاختلاف فى الثقافات فى حالة التقارب اللغوى ، أو قلة العناصر الفارقة بين القبيلين .

وينطبق هذا الذى نقول على المثالين المذكورين قبلاً . إنا نزعم أن الاختلاف فى بعض الأنماط الثقافية بين مجتمع عربى وآخر ، يرجع جزء كبير منه إلى الإنماط اللغوية الخاصة بكل مجتمع . وهذا هو الوضع بالنسبة للأوضاع الانجليزية والأمريكية من الوجهتين اللغوية والثقافية . ومالنا نذهب بعيدا : أليس اختلاف اللهجات فى بلدنا منبئا عن تنوع ثقافاتنا ، وأليس هذا التنوعُ فى الثقافات منعكساً على النشاط اللغوىّ ؟ ! لأمر واضح للعيان لا يحتاج إلى دليل .

وإلى هنا نصل إلى سؤال مهم : أتتحدد ثقافة الفرد بلغته أم أن لغته تتحدد بثقافته ؟ سؤال كبير شغل الدارسين وما يزال يشغلهم . وقد قدُمتْ لنا فى الإجابة عنه ثلاثة آراء . فهناك قوم يرون أن اللغة تُملى على الفرد أسلوب حياته وثقافتِه ، ويزعمون أن سلوك الفرد وتفكيره يرتكزان أولا وأخيراً على اللغة . وآخرون يرون أن اللغة ليست إلا أثرا من آثار عقلية المجتمع فهى عاكسة لثقافة هذا المجتمع . وفئة ثالثة ترى أن العلاقة بينهما علاقة تأثير وتأثر وبهذا الرأى الأخير تأخذ ، وتصوغه بعبارة أخرى ، مناسبة لبحثنا هذا ، فنقول : إن العالم

الحقيقى لأى مجتمع ، مبنىّ إلى حدّ كبيرعلى العادات اللغوية ، وإن علاقة اللغة بالثقافة هى علاقة الجزء بالكل : اللغة أخص والثقافة أعم ؛ إذ لها مصادر أخرى غير اللغة .

ما السبيل إذن إلى التعرف على تلك العادات اللغوية ؟ وما الطريق إلى توحيدها أو تقريبها ، بحيث تصبح رافداً متجانسا يصب فى وعاء الثقافة ليعمل بدوره على تكاملها وتماثلها أوتقريب الشقه بين أنماطها ودرجاتها لتصبح ثقافة ذات " هوية "عربية ؟

وما السبيل أيضاً إلى التعرف على الهيكل الثقافى العربى فى عمومه ؟ وما الطريق إلى النظر فى هندسته ونظامه ، كى نتعرف على مدى تجانس وحداته وتناسق مكوناته ، بحيث يمكن لنا أن نتخلص من نتوءاته ونشاز بعض جوانبه ، حتى يصبح عاملاً مهما من عوامل تجويد عاداتنا اللغوية والترقى بها إلى درجة مقبولة من التماثل أو التكامل ؟

هذه أسئلة ذات خطر وبال ، ولا نستطيع الإجابة عنها فى هذا المقام ونحوه إجابة تعدل أهميتها وخطورتها . إن الإجابة العلمية عن هذه الأسئلة تحتاج إلى جهود نفرمن الدارسين ذوىالاختصاصاتالمختلفةالتى تتعاون فيما بينها فى دراسة هذا الموضوع وأطرافه المتعددة . إن الأمر هنا يحتاج إلى جهودااللغويينوعلماءالاجتماع والانثروبولوجيا وعلماء الثقافة كل يأخذ بطرف وينظر من زاوية ويلتقون جميعا عند إجابة علمية دقيقة عن هذه التساؤلات السابقة . ونحن من جانبنا سوف نحاول نوعاً من الاجابة عن هذه التساؤلات بالكشف عن شىء من النقاط المهمة التى يمكن أن تؤخذ فى الحسبان عند النظر فى الموضوع ، آخذين منطلقين اثنين يحددان مسيرة المناقشة للوصول إلى مقترحات محّددة يسوغ للدارسين من بعدنا أن يأخذوا بها أو يعدّلوا فيها بالزيادة أو النقص ، أو أن يوسعوا فى جوانبها ويعمقوا أفكارها .

هذان المنطلقان هما :

١ - ينبنى الأمر فى إجابتنا هنا على فرْضية علمية قابلة للنظر هى أن كلا من هويتنا اللغوية والثقافية هوية ينقصها التكامل أو الاتجاه الموحد : لغة ذات مستويات وثقافة ذات ألوان وأشكال من النماذج والأنماط .

٢ - التكامل اللغوى والثقافى أمر مرغوب فيه ، بل واجب إنجازه والتمسك به ،

لما ينطوى عليه من أهمية بالغة فى توحيد الفكر والاتجاه القومى وفى تأكيد الروابط الاجتماعية ، وفى تقوية فكرة الانتماء إلى الوطن .

أما فيما يتعلق بالأمر الأول (وهو البناء اللغوى والثقافى) فإن النظر الدقيق الواعى يؤكد لنا أن هناك عدة مستويات فى هذا البناء . وهى فى حقيقة الأمر مستويات متداخلة متشابكة ، ليس من السهل الفصل بينها فصلاً تاما أوما أشبه . ولكنا - مع ذلك - نستطيع فى الجانب اللغوى على الأقل - أن نلمس فروقا واضحة بين هذه المستويات ، بحيث يسوغ لنا - وإن بشىء من التعميم - أن نميز بينها وأن نعين بعضا من الخواص الفارقة بينها .

إن الدراسات اللغوية التى جرت وتجرى فى هذا الحقل تشير إلى أن لدينا فى العالم العربى فى مجموعه خمسة مستويات ، وقد تزيد عن ذلك قليلا أو كثيرا ، فهناك الفصحى والأصلية الموروثة والممثلة أساساً فى النصوص المكتوبة فى تراثنا الفكرى والحضارى والثقافى والأدبى ، وهناك ما يدعى أحيانا بالعربية المعاصرة الموظفة فى أعمال المجيدين من المفكرين والمثقفين ورجال العلم والمستخدمة أحيانا فى أقوالهم وأحاديثهم الجادّة ذات الصِّبغة الرسمية . وهناك لغة الإعلام مكتوبةً ومنطوقة ، وهناك لغة عامة المثقفين فى حياتهم اليومية ، وهناك اللسان الدارج العام . وهذا الأخير نفسه ذو فروع شتى وألوان متعددة من لهجات ورطانات بيئية أو مهنية وحرفية .

وهذا التحديد الذى قررنا تحديد نسبىٌ بنيناه على أساس من الخبرة والتجربة والدرس ، وإن كنا لا ننكر ما بين هذه المستويات جميعا من تشابك وتداخل واضحين ، كما ألمحنا إلى ذلك قبلا . هذا التشابك وذاك التداخل ينبئان عن عدم التكامل فى بنائنا اللغوى وهما أمارة الخلخلة فى مكوّناته والتشازِ فى هندسته ونظامه .

والنتيجة فى كلا الأمرين واحدة : إذا أخذنا بفرضية تعدد المستويات وقعنا فى محظور التعدّد والتفرّق فى الهويّة اللغوية التى تعنى أوتؤدى إلى التعدد والتفرّق فى الهويّة القومية وما يرتبط بها من ثقافة وفكر وأنماط سلوك . وإذا سلّمنا بفرضية التشابك والخلط بين مكّونات البناء اللغوى العربى وقعنا فى إطار الفوضى اللغوية التى ليست لها حدود مرسومة

أو خواصّ معلومة . وهذا يعني بكل بساطة فقدان الوحدة اللغوية أو التناسق اللغوي الذي من شأنه أن ينعكس - شئنا أم لم نشأ - على مسيرتنا الحياتية وما تنتظمه من رؤى ووجهات نظر علمية أو فكرية او ثقافية .

هذا المأزق اللغوي الذي وقعنا فيه نحن العرب ، يختلف الدارسون في تقديره وفي الحكم على طبيعتة ، بل إن بعضهم لا يحسبه كذلك ، ويراه شيئا طبيعياً ينتظم في الوقت نفسه ثوابت أو عناصر أو مستويات لغوية ذات حدود واضحة نوعا ما ، وخواصّ تميزها مما يجري معها أو حولها في السوق اللغوية .

يرى بعضهم أن الخروج من هذا المأزق (إن كان مأزقا في نظرهم) يكمن في الاهتداء باللغة المكتوبة والأخذ بها واعتمادها لغةً عربية عامة ، تجمع القوم على لسان واحد . فهذه اللغة الموظفة في أعمال كبار المفكرين والمثقفين وذوي الاهتمام اللغوي الخاص لغةً عربية صحيحة فصيحة ، وإن كانت قد طوّرت لنفسها أنماطاً من الأساليب جديدة ، وسمحت لبعض الألفاظ والصيغ بالانضمام إلى ثروتها ، كي تسُدّ نقصاً ، وتتواءمَ مع ظروف الحياة المتجددة . وهذا التجديد وتلك الإضافة لا يخرجان بها عن دائرة القبول ولا يبعدان بها بُعداً ملحوظا عن جملة القواعد والقوانين المستقرة والمتعارف عليها في فصحانا الأصيلة .

وهذا الزعم - في رأينا - وإن كان يعرض نفسه بصورة جذابة ، تنقصه الدقة في النظر ، وعدمُ التعمق فيما يلفُّه من مشكلات تُفسد فاعليته ، وتقف في طريق تطبيقه والأخذ به ، وذلك لأسباب كثيرة ، أهمها :

١ - الاعتماد على اللغة المكتوبة وحدها أو جعلُها المحور أو المنطلق الوحيد لإصلاح المسار اللغوي العربي ، ليس الطريق الأمثل في حالتنا نحن العرب ، وذلك لشيوع الأمّية بين ظهرانتينا إن الأميين (وهم الأغلبية فيما أظن) سوف يُحرمون من هذا السبيل ، وسوف يبقُون حيث هم ، بل ربما أدّى ذلك إلى عزلهم لغويا وتوسيع الشقة بينهم وبين مواطنيهم من الذين أتيحت له فرص الإفادة من اللغة المكتوبة .

هذا ، إلى أن لدينا نوعا آخر من الأمّية وهي الأمية الثقافية التي تعني - في بعض جوانبها - عدمَ الاهتمام بالقراءة أو العمل على تجويد المحصول الثقافي واللغوي ، وإن كان أهل هذه الفئة يعرفون أو يجيدون القراءة

والكتابة نظريا . إننا - كما يقال أحيانا - نسمع ولا نقرأ : نتلقى معارفنا وخبرتنا وثقافتنا من الكلمة المنطوقة فى الأساس .

٢ - اللغة المكتوبة ليست لغة بالمعنى العلمى الدقيق . إنها تصوير ناقص للكلام المنطوق المملوء بالصدق والحيوية والمنتظم لخواصّ صوتية إلقائية تزيده فعالية وتأثيرا وتعبيرا . واللغة المكتوبة - فوق هذا وذاك - لغة فيها تكلف واصطناع : يسجل الرجل كلامه ويعود إليه مرة ومرات للمراجعة والتحسين والتجويد .

ويرى دارسون آخرون أن علاج مشكلتنا اللغوية يكمن فى الاعتراف بالواقع ، والأخذ بما سمّوه " اللسان الدارج أو اللغة الدارجة " . ولم يقدموا لنا تحديدا علميا دقيقا لهذا المصطلح ومرادفه ، واكتفوا بالإشارة إلى نسبة الشيوع والتوظيف العام فى المجتمع العربى . " فاللغة الدارجة " أكثر شيوعا وأوسع استخداما عند العامة والخاصة على سواء . وهى بهذه السمة تصلح أساساً للعمل اللغوى الذى يهدف إلى الوصول إلى صيغة لغوية مشتركة تجمع الناس على لسان واحد ، أو تناسق الوحدات والمكونات إلى حَد ظاهر فى كل البيئات العربية .

وأكبر الظن أنهم يقصدون باللسان الدارج تلك اللغة (المنطوقة فى الأساس) التى تأخذ بنصيب من الفصحى ومن العاميّات البيئية والحرفية والمهنية بنصيب أو أنصبة أخرى . إنها فى نظرهم هيكل وسط بين الفصحى ، كما نعرفها ، واللهجات والرطانات المختلفة .

ويقدم هؤلاء لدعوتهم هذه مجموعة من الأسباب والعوامل التى تقوى من زعمهم أو تسوّغة ، من ذلك مثلا :

١ - أن اللغة الدارجة لغةٌ مهمة فى المجتمع العربى ، بدليل اعتناء بعض الجهات العلمية بها ، كما يضهر ذلك فى وضع قواميسَ لها ومحاولة ضبطها بالتقعيد النحوى والأملائى لها .

وقد ظهرت فى ذلك كلهُ أعمال دراسية منّوعة بقصد تعليمها واستيعاب قواعدها .

٢ - الدارجة يستخدمها المسئولون فى أحاديثهم الرسمية ، كما يوظفها رجال التمثيل السياسى كأعضاء مجالس الشعب أو الأمة أو نحو ذلك من التجمّعات المسئولة عن الجماهير ومصالحها . نعم ، قد تشوبها الأخطاء والهنات اللغوية ، ولكن ذلك يمكن

التغلب عليه بالخبرة ومرور الزمن أو بالتنبيه والإرشاد .

٣ - الدارجة امتداد للفصحى ومتفرعة عنها ، واستقرت لغةً معترفا بها في أهم وسائل الإعلام والتثقيف العام كالإذاعة والتليفزيون .

٤ - الدارجة لها نوع من الاستقلال ولها كيان معروف ، وهى تحظى بالتقدير والاحترام . إنها لغة صحيحة وإن كان ينقصها التهذيب والتجويد .

٥ - لا نستطيع أولا تستطيع الجماهير مجاراة الفصحى وتوظيفها فى حياتهم العامة والخاصة . إن الجماهير لا تألفها ، ولا تستوعبها فى الأغلب الأعم بدليل أن كثيرا من الناس يغلقون جهاز الراديو أو التليفزيون عند البّث بها . وينطق هذا بوجه خاص على الشباب وبعض المثقفين .

ويقرر هؤلاء أن الفصحى لغة جامدة ، وما كان لها من حياة إلا بفضل القرآن الكريم .

٦ - الأخذ باللغة الدارجة والاعتراف بها وتوظيفها لغة عامة فى المجتمع العربى يغنينا عن الالتفاف نحو اللهجات العامية التى نادى - وينادى - بعضهم بأهميتها ووجوب التوجّه نحوها ، وجعلها رافدا من روافد التوظيف اللغوى .

فهذه اللهجات كثيرة كثرة بالغة تجعل من الصعب - إن لم يكن من المستحيل - توحيدها أو تقريب الشقة بين أطرافها المتعددة بحيث تصبح أو تُؤَهّل لأن تكون لغة عامة . هذا إلى أن اللهجات العامية لا تخضع للكتابة عادة ولا تحمل ثقافة قومية ذاتَ بال .

هذا الرأى الزاعم بأحقية اللسان الدارج بالتوظيف اللغوى العام وجعلهِ منطلق التوحيد اللغوى أو أساسَ بناء الهويّة اللغوية ، رأى - هو الآخر - يتّسم بسطحية النظرة ويبعد بنا عن الهدف القومى المنشود .

ذلك أن اللسان الدارج (أو اللغة الدارجة) - على الرغم من عجزهم عن تحديد مفهومه بدقة - ما زال هو الآخر مشوباً بشىء من الخلط والاضطراب فى حقائقه وظواهره : فبعض من هنا وأبعاض من هناك . نعم ، إنه فى بعض حالاته ينتظم مكّونات وظواهر فصيحةً بصورة ما ، ولكنه فى الأغلب الأعم ينزع إلى اللهجات العامية يستقى منها شيئا غير قليل من مادته وأساليبه . هذا بالإضافة إلى أن ظواهره الفصيحة (إن عُدّت كذلك بحق) مشحونةٌ

بالأخطاء واللحون ، الخارجة عن قواعد العربية وضوابطها المقررة . إن هذا اللسان فى كثير من حالاته لا يراعى قواعد الإعراب أو يخلط بينها ويشوّه نظامها . وكذلك تأتى قواعد نظمه والتعليق بين مكوناته على وجه غريب غير مألوف فى العربية الفصيحة ، كما يعرفها الثقات من الدارسين . وذلك مرّده إلى الجهل بعربية العرب أو إلى التغريب اللغوى الناتج عن التأثر باللغات والثقافات الأجنبية .

والقول بأن اللغة الدارجة لها وزن خاص فى عصرنا هذا ، بدليل اهتمام بعض الجهات العلمية بها قول ساذج ، تنقصه الحقيقة الواقعة . وهى أن هذه الجهات العلمية التى يشيرون إليها إما جهات أجنبية (كالجامعة الأمريكية بالقاهرة) أو جهات أخرى تُعنى باللسان الدارج لهدف خاص مؤقت وهذه الجهات كلها تُعنى باللسان الدارج بصورة ما ، لا بوصفه اللسان العربّى العامّ ، وإنما بقصد التيسير والتسهيل على الدارسين (وكلهم من الأجانب على ما نعلم) فى التعامل اليومى فى الشارع العربى ، وفاءً بحاجات هؤلاء الدارسين فى قضاء مصالحهم الموقوتة من تجارة أو حرفة أو صنعة أو زيارة خاطفة أو سياحة .. الخ .

أما ادعاؤهم أهمية اللسان الدارج بسبب توظيف المسئولين وممثلى الجماهير فى المؤسسات والتجمعات القومية له فهو ادعاء مغلوط ، لان هؤلاء المسئولين والممثلين الرسميين للشعوب ليسوا حجةً فى الحقل اللغوى ولا ينتظر منهم أن يكونوا كذلك ، ولم يكونوا فى يوم من الأيام فى أية لغة على وجه الأرض موردا من موارد جمع اللغة أو مصدرا من مصادرها . إنهم يحاولون وتارة يصيبون وأخرى يخطئون ، شأنهم فى ذلك شأن غيرهم من المثقفين غير المتخصصين . والمسئولية أو القيادة الجماهيرية لا تعنى بحال القيادة اللغوية .

واتخاذ الإذاعة (بوسيلتيها الراديو والتليفزيون) اللغة الدارجة وسيلة من وسائل الاتصال بالجماهير لا يعنى تفوق هذه اللغة أو أحقيتها بقيادة المسيرة اللغوية . إن الإذاعة – شأنها فى ذلك شأن المواقع الاتصالية الأخرى – تخلط فى وسائلها التعبيرية ، ولسانها الدارج ما زال مملوءا بالاضطراب ومحشّوا بالخطأ والتحريف فى جانبه المزعوم بالفصيح . والنغمة السائدة بين بعض غير العارفين من المثقفين وغيرهم بأنهم لا يستطيعون مجاراة

الفصحى لجمودها وبعدها (أو بُعد بعض أساليبها) عن الوفاء بحاجات المجتمع فى وقتنا الحاضر نغمةٌ ينفصها الوعى بأسرار اللغة وطبيعتها . العربية فى ذاتها لم تُجمد وإنما جمّدها أهلوها بعزلها عن التعامل الحّى ، وحرمانها من التوظيف العام فى مجالات العلم والثقافة . إنّ اللغة – أية لغة – ترتبط أشدّ ارتباط وأوثقه بالمجتمع الذى تعيش فيه تنمو بنموّه ، وتجمد بجمود معارفه وثقافته وفكره ، وتغدو هيكلا لا حياة فبه بفقدان طاقة الإبداع والابتكار فى هذا المجتمع .

يتبين لنا من هذا كله أن الدعوة إلى توظيف اللغة الدارجة توظيفا قوميا وحسبانها لغة العرب العامّة دعوة تحمل فى طيّاتها ما ينقضُها ، ويجعلُها غير ذات موضوع .

ويكفى أن نوجّه سؤلاً إلى الداعين إلى هذا الطريق ، فنقول : أىّ لسان دارج فى الوطن العربى نؤثره ونلتف حوله ؟ ألم يدركوا أن اللسان الدارج فى وطننا العربى متعدّدُ الأشكال والألوان ؟ ما السبيل إذن إلى الخلوص من هذا المازق ؟ عليهم أن يجيبوا ، وما هم بمستطيعين .

ويبالغ فريق ثالث ويهمس فى السر أو ينادى فى الجهر بصلاحيّة اللهجات العامّية وترشيحها للتوظيف اللغوى العام المنطوق والمكتوب على سواء . ومن حججهم التى ألقوا بها لتسويغ وجهة نظرهم ما يلى :

١ – اللهجات أقرب منالاً وأسهل توظيفا عند الجماهير ، وهى تمثل الألسنة الحّية الطبيعية المملوءة بالحيوية والصدق فى التعبير عند أصحابها ، وهم يمثلون الأغلبية الساحقة من المجتمع العربى .

٢ – إنها واسعة الانتشار ، بحيث أصبحت تسيطر على السوق اللغوية وتنفذ إلى كل المجالات ، العام منها والخاص على سواء . وهي بهذا اكتسبت من الاستقرار والتمكن ما يرشحها للاعتراف بها وإيثارها على مستويات الكلام الأخرى ، وهى مستويات يصعب الأخذ بها ، إما لصعوبتها وهى اللغة الفصحى ، وإما لبعدها عن عامّة القوم ، وهى اللغة المكتوبة .

٣ – اللهجات – وإن اختلفت فيما بينها فى بعض ظواهرها – تشكل فى مجموعها هيكلا عاما ، يشبه أن يكون لسانا مشتركا أو لغة دارجة .

٤ – اللهجات وجدت وتوجد فى كل مكان

وزمان . وقد وجّه علماء العربية فى القديم جهودهم نحوها ، فنظروا فيها ودرسوها بصورة من الصور ، وأشاروا إلى كثير من قواعدها وضوابطها ، وربما أخذوا ببعضها ، اعترافاً بأهميتها وشرعيتها .

وهذا الزعم بصلاحيّة اللهجات العاميّة للتوظيف العام زعْم مرفوض ، لامن الوجهة القومية فحسب ، بل من الناحية العملية كذلك . ذلك أن هذه اللهجات فائقة الحصر والعدّ ؛ فهى متعددة متنوّعة بتنوع البيئات والثقافات والحرف والصنائع والمهن . فالأخذ بها أخذ بشتات من الألسن التى قد تصبح إن عاجلا وإن آجلاً لغات مستقلة لها كيانها الخاص ، شأنها فى ذلك شأن اللغة اللاتينية التى تفرّعت - لأسباب مختلفة - فى فترة من الزمن إلى بضع لغات معروفة مشهورة ، منها الإيطالية والفرنسية والأسبانية ... الخ

وهذا التفرق أو التنوع يؤدى فى سياقنا العربى إلى أمرين خطيرين ، ليس لنا قدرة على مواجتهما أو قبولهما بحال . فهذا الوضع من شأنه أولا أن يهدد القومية العربية التى نسعى جاهدين إلى تأكيدها وتثبيت أركانها ، وهو - ثانيا - يقضى على لغتنا الفصحى أو يعزلها عزلا تاما ويحيلها إلى مجرد أثر تاريخى عفّى عليه الزمن . وفى هذا ما فيه من النَّيل بديننا وقيمنا ومبادئنا .

هذا بالإضافة إلى أن القول بأن هذه اللهجات تنتظم من الظواهر المشتركة ما يرشحها لأن تصبح لساناً دارجا عاما قول مبالغ فيه من الناحية العملية . إن وجوه الافتراق والاختلاف بينها كثيرة عميقة ، تجعل من الصعب - إن لم يكن من المستحيل - تطويعها وتهذيبٌ أطرافها وتقريبها بعضها من بعض بحيث تصَبح لساناً عامًا بين القوم أجمعين .

إن سهولة التعامل باللهجات وسعة انتشارها لا يعنى أهليتها لهذا الدور المزعوم . فما كانت السهولة وسعة الانتشار من الأمور المسوغة لتبنّى الأشياء ، إذا عارضت هدفاً قوميا ، أو حالت دون تحقيق قيمة وطنية ، تتمثل - فى حالتنا هذه - فى الظفر بوحدة لغوية تستتبع وحدة الثقافة وتقريب وجهات النظر والرؤى .

لا ننكر وجود اللهجات ولا ننكر أداءها لأدوارها فى بيئاتها الضيّقة وهى بهذا الوصف لا تعدو أن تكون مستويات لغوية

خاصة أو لهجات محلّية ، ليست لها صفة العموم ولا تصلح - منفردة أو مجتمعة - لأن تكون اللسان القومّى العام الذى نناقش مشكلاته فى بحثنا هذا ، والذى نحاول رسم السبل للوصول إليه بوصفه هدفنا المنشود .

وهذا الذى قررنا من الاعتراف بوجود اللهجات هو الذى جرّ علماء العربية فى القديم إلى النظر أحيانا فى اللهجات (أو ما سمّوه باللغات) . كان هذا النظر فيها لا بوصفها تمثل اللغة المشتركة أو الفصحى ، وإنما كانوا يعمدون إليها من وقت إلى آخر ، لأسباب معروفة مشهورة ، أهمها الرجوع إليها لتفسير ظاهرة وردت على لسان بعضهم لا تتمشى مع القواعد العامة للفصحى ، أو لبيان أن هذه الظاهرة أو تلك تخرج عن ضوابط الفصحى ، فلا يعتّد بها إلا فى بيئتها الخاصة بها ، أو لتحديد هوية هذه الظاهرة ونسبتها إلى لهجة معيّنة . وقول ابن جنى فى خصائصه " ولغات العرب كلها حجة " (ويعنى بها اللهجات) لا يخرج فى مضمونه عما ذكرنا ، وهو أن هذه اللهجات (أو اللغات بحسب عبارته) تستشار أحيانا لتفسير ظاهرة غير مطردة فى الفصحى ، أو لبيان هُويتها ، أو - فى أحسن تقدير - لبيان صحتها وشرعيتها ، وإن كان ذلك فى بيئتها الخاصة ، وهى بيئة عربية يمكن الائتناس بكلامها عند الحاجة ولا يعنى هذا القول بحال فرض هذه اللهجات أو النّصح باتخاذها لسانا عربيا عاما . والتعبيرُ بصيغة الجمع (لغات أو لهجات) ينفى إرادته هذا الاحتمال .

* * *

يتبين من كل ماسبق أننا مازلنا نلتمس الطريق الصحيح إلى مستوى لغوى موحّد أو لسان مشترك ينتظم العناصر الأساسية والقواعد الجوهرية التى نشكل منه بناءً عربيا متكاملاً خالياً من التنافر والاضطراب ، ويخلصنا من فوضى التفرق والتشعب المتمثل فى اللهجات العامية أو فيما يُدعى باللسان الدارج ، أو ما يقتصر توظيفه على فئة دون أخرى ، كما هو الحال بالنسبة للغة المكتوبة التى تقابل حاجة المثقفين أو خاصتهم ، وهم قلة فى العدد بالنسبة للجماهير العريضة الواسعة الانتشارالفائقة الحصر .

والسبيل إلى هذا المستوى اللغوى الموّحد ، أو بالأحرى ، إلى لسان عام مشترك يتسم بالتجانس والتكامل ، ويبعد -قدر الإمكان-

عن فوضى اللهجات وتعدّد الرطانات ، سبيل صعب معقّد ، لا يمكن اجتيازه بالآمال والأحلام ، ولا يمكن السير فيه إلا بأتخاذ العُدد والأدوات التى تمهد جوانبه وتُسْلمنا إلى غاياته .

الوسائل أو الأدوات التى من شأنها أن تأخذ بيدنا نحو هذه الغايات كثيرة متنوعة ، ولكنها – فى رأينا – تنحصر فى وسيلتين اثنتين تنتظمان بطبيعتهما كل الوسائل أو العوامل التى لها سبب مباشر أو غير مباشر بالإصلاح اللغوى

أما الوسيلة الأولى (وهى ليست محلّ البحث التفصيلى هنا) فتتمثل فى العود إلى الفصحى واتخاذها منطلقا وأساسا للبناء . فالفصحى – قديمها وحديثها – لها وجودها ولها مواقعها ، وإن عزّ التعامل بها أحيانا فى حياتنا العامة والخاصة . والاهتمام بالفصحى لا يعنىَ تلقينَ قواعدها ، منعزلةً عن مادتها ، كما يجرى العمل فى معاهد العلم اليوم . وإنما يعنى الاعتناءَ بكل العوامل والجوانب التى تعمل على تحريكها وإفساح الطريق أمامها . فهناك مادتها التى ينبغى أن تختار نصوصها ونماذجها وفقا لقواعد التدرج من السهل إلى الصعب ، وهناك معلّمها وطلابها ، وهناك مناهجها وطرائق أدائها . وهناك أخيراً وليس آخرا ما نحَسبه أهمّ وسيلة لتطويعها وجعلها مألوفة مأنوسة ، وهو محاولة توظيفها نطقا وأداءً حيّا . وهنا يأتى دور وسائل الإعلام المنطوقة ، وما شابهها من مجالات ، كالنوادى الثقافية والجماعات الخطابية فى دور التعليم ، والمحاضرات والندوات العلمية ، وما إلى ذلك من كل تجمع أو ظرف يجرى فيه التعامل باللسان الحىّ المنطوق ، كالتمثيليات والمسرحيات والأغانى ... الخ

ويأتى على القمة من ذلك كلة العودُ إلى كتاب الله وجعله نقطة البدء فى التجويد اللغوى ، بحفظه ودراسته ، واتخاذه أساس البناء اللغوى العربى .

وربما يَدْعَم هذا الاتجاه الآخذ بالفصحى منطلقا للعمل ويقوّيه أن نسمح بالتقاط بعض الألفاظ والعبارات والأساليب التى توظفّ فى اللغة الدارجة العامة أو بعض اللهجات ، ولها قيمٌ تعبيرية خاصة ترشحها للاقتراض ؛ كأن تكون صحيحة فصيحة ، أو أداةً للتعبير عن معانٍ مستحدثة أو مفهومات جديدة ، اقتضتها ظروف الحياة المتطورة وحاجاتُ العلم

والفكر فى صورتهما الديناميكية .

وليس يغرب عن بالنا أن اللغة الدارجة واللهجات العامية تنتظم قدراً ملحوظا من المادّة اللغوية الصالحة للتعامل الفصيح ، وإن كانت غيرَ واضحة الحدود والمعالم لتشابكها مع أنماط أخرى من الكلام أو الأساليب التى انحرفت بصورة أو بأخرى عن معايير القبول من وجهة نظر خاصة .

هذا الأخذ المشروط من اللسان الدارج واللهجات له مردود عمليّ مباشر ، إذ من شأنه أن يقّرب بين الألسن المختلفة ، ويأخذ بيد العامة وأنصاف المثقفين ويشجعَهم على التماس اللسان الفصيح والتعامل به ، وإن بالتدريج .

وتأتى الوسيلة الثانية للظفر بلسان عربى فصيح متكامل الأطراف والجنبات مكمّلةً للوسيلة الأولى ومصاحبةً لها . ونعنى بهذه الوسيلة الثانية النظرَ فى بنائنا الثقافى ، بالعمل على تجويده وتعميقه وتخليصه من شوائبه الممثلة فى تفككه وعدم الانسجام بين وحداته وأنماطه المتباينة .

ومعلوم أن الثقافة لها دورها البارز فى البناء اللغوى ، سلباً وإيجاباً وقوة وضعفا فالتكامل الثقافى سبيل من سبل التكامل اللغوى ، والعكس صحيح .

وبناؤنا الثقافى - كما نعلم - بناء فاقدا الهوية ، مملوء بأخلاط وأمشاج من المستويات والأنماط المتنافرة ، بل المتناقضة أحيانا . وإذا كنا قد استطعنا أن نحدد - نوع تحديد - المستويات اللغوية التى يجرى التعامل بها فى وطننا العربى الكبير ، فإن تحديد مستوياتنا الثقافية أمر بالغ الصعوبة والتعقيد . ذلك أن ليست لدينا دراسات ترشدنا بصورة يعتمد عليها إلى هذا التحديد ، وإلى وضع شىء من الخطوط التى تميز مستوىً ثقافيا من آخر . هذا بالإضافة إلى أن روافد الثقافة فى أى مجتمع كثيرة متنوعة ، وقابلةً للتغّير والتبدل أحيانا بسرعة ملحوظة . إن هذه الروافد موجودة ، ولكنها أشبه بالأمواج نلحظها ونشاهدها، ولكننا لا ندرى من أين بدأت هذه الموجة أو تلك أو إلى أين تنتهى . ولكنا هنا أيضا - وبضرب من التجوّز الشديد كذلك - نستطيع أن نقول إن فى مجتمعنا العربى فى عمومه ما يمكن أن يسمى ثقافةً العامة وثقافةً الخاصة ، ولكل من القسيمين فروع أو نماذجُ مختلفة ، نلمسها - فى أقل تقدير - فى

السلوك الثقافى الواقع من الفرد أو الأفراد فى البيئة المعينة أو الظرف المعّين .

وفى السبعينيات والثمانينيات من هذا القرن جدّت أحداث اجتماعية واقتصادية أمدّت هذا البناء المهزوزَ الاركان بروافدَ أخرىَ خارجيةٍ وداخليةٍ شوّهت هيكله وصبغته بألوان ثقافيّة متنافرة .

ويكفى أن نشير هنا إلى آثار العوامل الاقتصادية الطارئة وما ارتبط بها من تغيّر فى البناء الاجتماعى ، بوصف هذه العواملِ المحّركَ الأساسىّ لهذه الموجات من الثقافات وأنماط السلوك غير المعهودة وغير المقبولة فى آن معاً .

كان الوضع الاقتصادى المضطرب فى بعض البلاد العربية بمردودة الاجتماعى الخطير ، وكان النفط فى بلاد الخليج بمردوده المادى الوفير . دفع هذان العاملان بأهليهما نحو الانشغال بالمادة والكسب السريع ، مضحين فى ذلك بشىء غير يسير من القيم والأعراف العربية التى كنا ننعم بها فى جو يملؤه الحب والتعاطف وتتّوجهُ فكرةُ الانتماء إلى الجماعة وإلى العروبة بمعناها الأصيل .

اتخذ التسابق نحو جمع المادة وإنفاقها أيضا طرائق عدة ، نشير إلى اثنين منها فى هذا المقام بوجه خاص ، بوصفهما نقطتى الانطلاق اللتين تفرعت عنهما وتولدت منهما سائر السبل الأخرى التى تنشد الغاية ذاتها .

يتمثل الطريق الأول فى طوفان الهجرة الداخلية والخارجية . ففى مصر مثلا ، كانت الهجرة من القرية إلى المدينة ومن كلتيهما إلى دول الخليج ، طمعاً فى حياة أرغد وعيش أنعم وسبيل للكسب أسهل مجهودا وأكثر مَردوداً . واستقبل الإخوة فى بلاد الخليج الناعمون بخير الله وفضله جحافلَ العاملين من كل حَدَب وصْوب ، واعتادوا أو اعتاد الكثيرون منهم على شدّ الرحال من وقت إلى آخر إلى بلاد أخرى غير بلادهم ، عربيةٍ أو أجنبية ، طلبا للراحة أو النزهة أو استثمار الأموال والتجارة وعقد الصفقات ، وما إلى ذلك من أهداف ، تسمح أوضاعُهم الاقتصادية بتحقيقها دون عناء أو مجهود يُذكر . وقد تتكرر هذه الرحلات الخارجية فى أوقات متلاحقة وقد تطول أو تقصر .

هذه الهجرات الداخلية والخارجية للقبيلين (المصرى والخليجى) كان لها أثرها فى ظهور ثقافات وأنماط سلوك باهتة مشحونة بالخلط

والاضطراب . فالجامعون للمال – أو بعضهم – لا يحسنون توظيفه ويعودون إلى بلادهم مُثقلين بعادات استهلاكية غير معهودة : ينفقون المال ذات اليمين وذات الشمال ويغدقون بلا حساب على أهليهم وأزواجهم القاعدين هناك والمحرومين من دفء الصحبة والعشْرة الأسرية ، حيث تركوهم نهباً للوحدة والضياع ، وحيث عرّضوهم لمسالك الشرّ ومسارب الإحباط .

والمنفقون للمال العربى فى غير أوطانهم يعودون منها وقد جفت جيوبهم وحملوا معهم قدرا غير يسير من الأفكار والعادات التى لا تنسجم فى قليل أو كثير مع ما أستقرّ فى بلادهم وما تعارَف عليه أهلوهم من مبادىء وقيم .

هذا المنهج غيُر الراشد فى التعامل مع المال أو الثروة أحدث شيئا من الفوضى فى التعامل مع الحياة وشيئا من التجاوز فى السلوك الاجتماعى ، وأصبحت المادة معياراً لأقدار الناس ومواقعهم فى البناء الاجتماعى ، الأمر الذى جرّ الجماهير المحرومة من إحدى الحسنيين أو كلتيهما إلى صحوة مفاجئة محمومة ، وأخذوا يفركون أعينهم ويهُرشون أدمغتهم : ماذا يفعلون ؟

وكان الطريق الثانى إلى الكسب المادىّ السريع ، المتمثل فيما نسمية « بالتطلّع » . لم يكن ثمة وقت عند القاعدين من هذه الجماهير للتفكير أو الإعداد المناسب للوصول إلى غاياتهم . فقطار المال ينهب الأرض بأصحابه نهبا بسرعة مذهلة ، تعجزهم عن الانضمام إلى ركّابه أو اللّحاق بهم ، إن لم يقفزوا إليه قفزا وليكن ما يكون .

وكان لهم ما أرادوا : قفزوا إلى كل موقع يمكن أن يُمدّهم بالطاقة التى تجرهم على وجوههم أو تدفع بهم من ظهورهم للحّاق بالقطار المزمجز بلا هوادة أو رحمة . انتشروا هنا وهناك وكانت الفرصة مواتية لظهور فئات من الناس تصيد المال من بحر الفوضى والتسيب وتجْمعهُ : ظهر التجار الجدُد ورجال الأعمال والمقاولات والحِرفيون وأصحاب المهن والصنائع ، والخارجون على القانون والأعراف من المتعاملين بالمخّدرات والمحرمات بيعا وشراء وتعاطيا وإدمانا ، والمعتدين على المال العام والخاص ، ومن الأفّاقين والنصابين ، وما إلى ذلك من فئات أو طبقات تتطلع بنهم وشراهة إلى وضع مادّى يرفعهم من وهدتهم ويأخذ بيدهم إلى مصافّ المحظوظين .

ولم تستطع فى الوقت نفسه فئات قليلة من الجماهير أن تجارىَ هؤلاء أو أولئك فى منهجهم ذاك الخطير . فانكفئوا على أنفسهم وانعزلوا عن المجتمع وما يجرى فيه من خير وشرّ . وأصابت بعضهم [illegible] لفكر والاتجاه فاتخذوا التعصب مبدأً والتحجّر منهجا .

وبقيت فئة ثالثة تندبُ حظها ، لا حول لها ولا طول ، فهى لا تدرى ماذا تفعل فى هذه السوق الهائجة المائجة ، ووقفوا حيث هم فى حيرة من أمرهم ، فهم لا إلى هؤلاء أو أولئك يُنسبون ، ولا هم أيضا بمستطعين الانضمام إلى أىّ من الفريقين أو الفرقاء .

وقد أفرزتْ هذه الفوضى الاقتصادية وتولدت عنها فوضى ثقافية أجتماعية أشدُّ خطرا وأعنفُ فتْكا . وظهر جيل من الشباب (وانخرط معهم بعض شيوخ الشباب أو شباب الشيوخ) موزّعَ الخاطر ، مشتّت الفكر ، مذبذب السلوك ، مشدوداً بحكم الفراغ والجدة إلى مراتع الهلكة ومواقع الجنوح والتجاوز ، حتى انفرط عقْد الانتماء ، وانقطع حبل الوصل بينهم وبين شيء غير قليل من عادات قومهم وتقاليدهم الأصيلة الطيبة .

ونزل الفنانون إلى هذه السوق المتشابكة الأطراف ، قصداً منهم (كما يّدعون) إلى فضّ الاشتباك وتعيين المواقع وتحديد المنازل والأقدار ، بتقديم تجسيد حىّ لهذه الفوضى ، علّ الناس يدركون مأساتهم ويلمسون عن قرب ذلك المأزق الثقافى الاجتماعى الذى وقعوا فيه ، فيعودوا إلى رشدهم ويحاولوا ترتيب البيت من جديد .

ولكن خاب ظنهم (وظننا معهم) إذ جاءت بعض أعمالهم الفنية (من أفلام وتمثيليات ومسرحيات) عاجزةً عن الوفاء بغاياتها ، بل غدتْ هى الأخرى رافدا من روافد التلوّث الثقافى ، ومنطلقا جديدا لمسيرة الانهيار الاجتماعى .وقد وقعت بعض وسائل الإعلام (وبخاصة التلفزيون) فى هذه الورطة ، باستقاء مادتها من هذه الأعمال الفنية التى أخطأت طريقها إلى غاياتها المنشودة ، إن كان لدى هؤلاء أو أولئك مثلُ هذه الغايات .

واقتحم (الفيديو) السوق الاجتماعية ، بل البيوت الهادئة الوادعة ، فملأها صخبا وضجيجا ، وعلا صوته ، لتنوعّ مادته وما تنتظمه من جاذبية وإغراء . فاختلط الحابل بالنابل ، وتشابك الفن الرفيع بالفن الوضيع ،

وامتلأت النفوس بشتات من الثقافات وألوان من السلوك الجانح ، حتى غابت عن الوعى وانطلقت فى تصرفاتها على غير هدى .

وجاء الكمبيوتر (أو الحاسوب) المنزلى ، وما أظنه خاتمة المطاف . ووُظفتْ هذه الآلة أسوأ توظيف ، إذا ركزّتْ أو ركّز مروّجوها على تقديم مواد التسلية وقتل الوقت وتزْجية الفراغ ، فى حين أن هذا الجهاز السحرى يحُسب فى نظرنا من أهم وسائل التثقيف والتربية والتعليم ، وبخاصة فى مجتمع هو فى أشدّ الحاجة إلى توظيف هذا الجهاز توظيفا راشدا عاقلا .

هذا التلوث الثقافى الذى أصبْنا به فى السنوات الأخيرة كان له أثرُه الواضح فى التلوث اللغوى الذى ندركه جميعا على كل المستويات الاجتماعية واللغوية . ظهرت على السطح ألفاظ جارحة ، وعبارات جانحة ، وأساليب جامحة . ولم يعُد توظيفها مقصوراً على أصحابها من الفئات الجديدة التى ملأت حياتنا بغُبار التجاوز والشذوذ فى الأجواء الاجتماعية والثقافية ، بل تعدى هذا التوظيف حدوده وتسلّل إلى مختلف الألسن ومختلف الطبقات .

هذا التسلّل اللغوى استفحل أمره وقوى شأنه ، حتى نَفَذ إلى أفئدة الناشئة وأصبحوا يردّدون أمثلته ويحاكون أنماطه ، وغدتْ مادّتهُ كما لو كانت مكوناً مهما من مكّونات بنائنا اللغوى العربى . تسمع هذه المادة اللغوية (وربما ترددها) فى كل سياق ومقام ، ولكنا هنا لا نستطيع حصر هذه المادة أو الكشف عنها كشْفا دقيقا ، كما لا نستطيع تحديد سياقاتها وبيئات توظيفها تحديداً ينبىء عن طبيعتها وخطوط توزيعها على طبقات المجتمع وفئاته . فذلك أمر يحتاج إلى بحوث منوّعة مستفيضة يتحمل مسئوليتها مجموعات من رجال علم الاجتماع والأنثروبولوجيا والجغرافيا والثقافة واللغة .

ويكفى فى هذا المقام أن نخصّ بالذكر بعضا من المجالات التى لها سعةٌ من الانتشار غيرُ منكورة وصلاتٌ قريبة من الجماهير العريضة مذكورة . جاءت بعض الأعمال الفنية من أفلام ومسرحيات ... الخ محشوّة بالألفاظ والعبارات الهابطة مبنىً ومعنىً ، ونزلت بأسلوب الأداء اللغوى إلى درجة ملحوظة من الإسفاف والاستخفاف . وكذلك كانت الأغانى الجديدة ، بل وردت كلماتُها أشدّ نُكرا ،

وأبعدَ نُبُوّاً وأكثر شذوذا . وإنما كان هذا الأسلوب فى تأليفها ظنّا من مروّجيها أنها بهذا النهج ، تُرضى أذواق الطبقات الجديدة من ذوى الصنائع والمهن والحرف الذين أوتوا قدرا من المال موفورا ، وأنها فى هيكلها تناسب الهيكل الاجتماعى السائد الطافح بألوان من الثقافات المتباينة .

وهذه الأغانى (وهى فى حاجة إلى دراسة مستقلة) لها دورها الخطير فى توجيه الناس واكتسابهم ضروباً من أنماط السلوك وألوانا من الفكر ناشزة نشوزَ كلمات الأغنيات ذاتها . فالأغنية (أية أغنية) كما نعلم من أهم وسائل توصيل الرسالة ، وهى أعمق هذه الوسائل تأثيرا ، وأشدُّها وقعًا فى النفس وأقربُها إلى القبول . ذلك أن الأغنية تمتاز بمجموعة من الخواص الأدائية التى حرمت منها وسائل التوصيل الكلامية الأخرى : فيها الكلمة واللحن والموسيقى والأداء الصوتى الخاص ، وهذه العوامل مجتمعة تشكل وجدان الناس وتنفذ إلى أفئدتهم ، وتلمّسُ أحاسيسهم وتوجّه أفكارهم وطرائق تعاملهم مع الحياة ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشّر . وباختصار شديد ، إن الأغانىّ بمثابة الرسالات الموجَّهة الكاشفة : إنها توجّه المجتمع وترسم له خطوط مسيرته وتصرفاته ، وهى فى الوقت نفسه ، تكشف عن عاداته وأعرافه .

وفى هذا المعنى يقول حكيم صينى : " إننى لا أهتم بمن يضعون للناس قوانينهم قدر اهتمامى بمن يكتبون لهم أغانيَهم " . ويؤكد هذا المعنى نفسَه قولُ أرسطو مخاطبا تلميذه الإسكندر الأكبر : " إذا خرجت للحرب وفتحت مدينة ، فاذهب وابحث عن كاتب أغانيها فهو حاكمها " .

وإن ننس لا ننس فى هذا المقام ذكْرَ مجال آخر من مجالات الاضطراب الثقافى واللغوى فى بيئتنا العربية . درج أهل الخليج العربى منذ سنوات على استقدام الآلاف المؤلفة من العاملين غير المثقفين وأنصاف المثقفين أو أشباههم من جميع أنحاء المعمورة . وفَد هؤلاء إلى هذه المنطقة يحملون معهم أشتاتاً وأخلاطا من الأفكار والرؤى والاتجاهات ونماذج السلوك ، كما تحركت ألسنتهم بلغات ولهجات ورطانات متباينة ، ليست لها أية صلة بالعربية من قريب أو بعيد . واختلط هؤلاء بأولئك فى جميع مواقع العمل ، بل أشتدّ الاختلاط ، وتسرّب بعض هؤلاء

الوافدين إلى البيوت العربية ، وتولى كثير منهم شئون هذه البيوت وتربية الصغار ورعاية الناشئة .

لسنا ننكر أن هناك مسوّغاً لاستقدام هذه الجحافل من العاملين ، بقصد الاستعانة بهم فى التنمية وتسيير دفة العمل الواسع الجنبات المتنوّع الجهات ، فى منطقة طامحة إلى التقدم والازدهار ، كى يحتل أهلوها موقعا فى ركب الحضارة ، يتناسب مع ما أفاء الله عليهم من نعمةٍ ومنحهم من خير وثراء . ولكنّا هنا نقرّر واقعا ونسجّل ظاهرة ملموسة ، حرىّ بنا أن ندرسها ونحلّلها لنُبدىَ فيها رأيا صالحاً ونتخذ منها موقفاً مدروساً .

ومهما يكن من أمر فليس لأحد أن ينفى ما أشرنا إليه من خلط ثقافى لغوى دخيل على هذه المنطقة الوادعة ، وبخاصة بين الصغار والناشئة . راقبْ هؤلاء وأولئك بحيْدة الدارس المتأمل ، وانظر كيف يتعاملون مع الحياة ، وكيف يرْطنون ويبلبلون بألسنتهم .

* * *

استقرّ لنا بعد كل هذا الذى قدّمنا ما أشرنا إليه فى بدء الكلام من أن بناءنا اللغوى والثقافى بناء ينقصه الانسجام والتكامل ، وأن هذا البناء فى حاجة إلى نظر علمى دقيق شامل ، كى نُصلح من شأنه ونقوّمَ أركانه الناشزة النافرة . ولا نزعم أننا أتينا بشى من سُبل هذا الإصلاح وذاك التقويم ، وإن كانت كلمتنا فى مجملها تنبىء عن بعض من نقاط الانطلاق إلى هذه السُّبل . ولكنا – مع ذلك – نزعم أننا سجلنا واقعا ملموساً وحلّلنا أبعاده وجوانبه ، على ضربٍ من التنبيه والتحذير .

لا ننكر أن بعض الجهات والهيئات والمؤسسات قد تنبهت إلى هذا الموضوع وحاولت محاولاتها فى طرف أو آخر منه ، ولكن كلّ هذه المحاولات أو جلّها جاءت ناقصة أو قاصرة ؛ فلم تجهد نفسها فى التعرّف على جميع أبعاد القضية ولمّ شتاتها ، بوصفها كُلاً متكاملاً ، لا يُغنى جانبٌ منه عن آخر .

فالمجامع اللغوية فى بلادنا العربية تكاد تحصُر عملها فى النظر فى الألفاظ والمصطلحات وما إلى ذلك من حيث تفصيحها أو تعريبُها أو ترجمتُها ، وفى بعض القواعد الثانوية يقصد تسهيلها وتقريبها إلى الناشئة ، ولم تشأ – أو غاب عنها – أن تنظر فى البناء اللغوى العربى بكل مستوياته وتنوعاته ،

حتى تستطيع أن تبدى فيه رأيا على الوجه الذى قدّمنا . ونلحظ كذلك أن هذه المجامع لم تُعِر التفاتاً ملحوظا نحو الثقافة ومشكلاتها وعلاقتها الوثيقة بحقل اختصاصها الأول وهو اللغة .

واتخذت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم لنفسها اتجاها مضاداً ، إذا ركّزت جهودها على الجانب الثقافى ، واكتفت من الجانب اللغوى بالنظر فى مسائلَ جزئية ، تتمثل أساساً فى حصر المفردات الموظفة فى كتب المراحل الأولى من التعليم ، وفى إصدار معجمها الأخير (المعجم الأساسى) . وفى الجانب الثقافى نفسه ، جاء عملها سطحيا لا يمس جوهر موضوعنا فى قليل أو كثير .

أما وزارات الثقافة وما أشبهها من هيئات ومؤسسات فلم ينْجُ جهدها من نقص وقصورٍ ظاهرين فى هذا المجال . فالعمل اللغوى ليس له موقع فى ساحتها ، باستثناء محاولاتها فى تحقيق بعض مخطوطات التراث ونشر بعض المؤلفات ذات الصلة باللغة . وفى الجناح الثقافى ، حصرت هذه الوزارات والهيئات نفسها فى طرف أو آخر منه . فبعض منها وجهّ جل اهتماماته إلى زاوية ضيقة متمثلة فيما سمّوه بالفنون من رقصٍ وتمثيل وغناء ، وما إلى ذلك من كل ما له طبيعة التظاهر وإمكانية حشدِ الجماهير . وبعض ثانٍ انصرفت همته (وهى همّة صحيحة من وجهة النظر الثقافية فى عمومها) نحو تقديم زادٍ ثقافىّ متنوع ثرىّ ، فى صورة مجلاّت أو كتيبات أو ما أشبه . ولكن هذا الفريق – شأنه شأن الفريق الأول – لم يحاول أن يجمع بين القبيلين (اللغوى والثقافى) فى النظر والدرس ، كى نتعرف بصورة علمية صحيحة ، على بنائنا اللغوى والثقافى ، وهو الأمر الذى نزعمه أهمّ وظائفِ هذه الوزارات والهيئات ، إذ هو المنطلق الصحيح لأى نشاط يقع فى دوائرها مهما اختلفت التسميات .

وهناك – على كل حال – جهات أو هيئات أخرى ينبغى الإشارة إلى جهودها فى هذا المجال بوجه خاص . ذلك أنها أدركت هذه المشكلة ووعتْ أطرافها ، وحاولت أن تأتى بشىء ذى بال فى هذا الشأن . فالمدرسة اللغوية الحديثة فى مصر الناهجةُ النهج الاجتماعىّ الأنثروبولوجىّ فى درس اللغة ، كما رسمه مالينوفسكى وفيرث فى لندن ، قد ألمت بطرف مهم من هذه القضية ، إذ ركّزت فى

جزء كبير من بحوثها على النظر فى الهيكل اللغوى العربى ، وحاولت التعرف على مختلف مدارجه ومستوياته مع ربط كل مستوىً ببيئته وسياقه الاجتماعى ، مع الاعتماد فى ذلك كلهّ على العمل الميدانى الذى يشكّل حجر الأساس فى هذا المنهج . ولكن رجال هذه المدرسة - بحكم اختصاصهم الدقيق - لم يلتفتوا التفاتا يُذكر إلى ما يواكب هذه المدارج والمستويات اللغوية من ثقافات وأنماط سلوك ، ولم يحاولوا فى قليل أو كثير ربط القبيلين بعضهما ببعض .

وثمة جهود أخرى بارزة مشكورة يقوم بها الباحثون فى أقسام علم الاجتماع والأنثروبولوجيا فى مصر (وبخاصة فى آداب الإسكندرية بقيادة صديقنا العالم الفاضل الدكتور أحمد أبو زيد) : تتمثل هذه الجهود (على العكس من جهود المدرسة اللغوية السابقة) فى النظر العلمىّ الدقيق المبنى على العمل الميدانى الواسع فى البناء الثقافى المصرى ، لاكتشاف تنوعاته ومكوناته ومصادره ، والتعرف على خطوط هذه التنوعات وحدودِ توزيعها ، بحسب البيئة والحرفة والصنعة والمهنة والنوع والسنّ .. الخ .

وهؤلاء الباحثون أيضا - بحكم الاختصاص - لم يُعنَوا بالجانب اللغوىّ إلا لماماً ، بقصد التفسير والتوضيح .

وهنا يسوغ لنا أن نقول : ياحبذا لو التقى الجمعان (جمعُ اللغويين وجمع الاجتماعيين) ، وانطلق الباحثون هنا وهناك من رؤية موحّدة ، تجمع بين الطرفين اللغوى والثقافى ، لينتهوا إلى غايتنا المنشودة موضوع الحديث ، وهو الكشف عن أوضاعنا اللغوية والثقافية بطريق علمى ميدانى صحيح .

وفى مصر أيضا شغلتْ شعبه الثقافة المنبثقة عن المجالس القومية المتخصصة والتى أشرُف بعُضويتها - شغلت هذه الشعبُة نفسها بهذا الموضوع منذ عامين . وما زال العمل قائما ولا يُنتظر الانتهاء منه فى وقت قريب ، نظرا لتنوع أطرافه وتعدد جوانبه المتشابكة المعقّدة . وهذا العمل - وإن كان نظريًا غير معتمدٍ حتى الآن على المسح الميدانى - خُطوةً جادّة ثابتة على الطريق الصحيح ، فالتنظير يمثل نقطة الانطلاق إلى كل عمل علمى دقيق ، لتسلمَ له مناهجُه وطرائقُ البحث فيه .

وهكذا نرى أن المحاولات السابقة كلها يشوب عملها شىء من النقص والقصور ، إما

لاهتمامها بجانب دون آخر ، وإما لفقدان الرؤية الواضحة لوظائفها أو إهمال المنهج الدقيق فى الدرس والتحليل . وفى رأينا أن هذه الجهود الموزّعة المتناثرة لو تجمعت وتلاقتْ جوانبها بمنهج موحّد مقبول لشكلت لنا أرضيةً صُلبة وانطلاقةً مؤكدة للوصول إلى هدفنا . ولكن يبدو أن الفرقاء يؤثرون العزْلة ، فانصرفوا إلى ذوات أنفسهم أو بيئاتهم الخاصة .

وكان الأمل معقودا على كل حال – على تلك التجمعات العربية الموسومة بمجالس التعاون ، التى كنا نظن أنها نقطة انطلاق فى الطريق الصحيح إلى العمل العربى المشترك المبنىّ (فيما نأمل ونرجو) على تخطيط علمّى مدروس ، بهدف الوصول فى نهاية الأمر إلى رؤية عربّية موحّدة ، أو إلى نوع من التكامل فى البناء العربى ، سياسّيا واقتصاديا وثقافياً . هذا ما كنا نأمله ونرجوه ، ونلحّ فى الأمل والرجاء على المسئولين هنا وهناك أن يمنحوا قضيتنا هذه أولويّة خاصة ، إذ إن اللغة والثقافة هما عماد القومية ، وهما أساس كل نشاط أو عمل أو إنجاز يسعى إلى تأكيد الهُويّة العربية وتحديدِ ملامحها الخاصة التى تصنع منها كيانا مستقلا منسجمة مكوّناتهُ ومتماسكة جوانبه .

* * *

ونحن من جانبنا ، نقدم لهؤلاء وأولئك ولكل من يهّمه الأمر ويعنيه ، بعضَ الخطوط العريضة أو النقاط التى هى بمثابة الإشارة إلى النظر فى المشكلة من جميع أطرافها وزواياها المتعددة . ونشير قبلا إلى أربعة أمور تتعلق بمنهج الدرس وطرائق إنجازه :

١ – تشكيل فريق عمل من المتخصصين فى علوم اللغة والاجتماع والأنثروبولوجيا والثقافة والإعلام وأصحاب الفكر والرأى . على أن ينتظم هذا الفريقَ أعضاءٌ من كل البلاد العربية بلا استثناء .

٢ – ينبغى لهذا الفريق أن ينظر فى كل الأعمال التى جرت فى هذا الشأن ، فرديةً كانت أم جماعية ، محلّية أم عامّة .

٣ – الاعتماد على البحث الميدانى فى مختلف البيئات بوصف هذه البيئات المصادرَ الحقيقية للمادة . فالقضايا الجماهيرية لا تُنظر أو تدرس فى الأروقة العلمية أو المكاتب المغلقة ، إلا فى الخطوات النهائية عند تنسيق المادة وتصنيفها وتحليلها والخروج منها

بالنتائج والأحكام العامة .

٤ – ضرورة دعم هذا الفريق سياسيا وماليا .

ونورد بعدُ بعضَ المجالات التى يمكن أخذُها فى الحسبان ، والتى تشكّل انطلاقة صالحة للعمل ، وهى فى مجموعها تمثل مصادر البحث فى بنائنا الثقافى واللغوى ، وإن كان كل مجال منها يستحق وقفة خاصة .

يجدر بالفريق المشار إليه سابقا أن يتوجه بالبحث والدرس إلى المجالات الآتية ، منفردة أو مجتمعة :

١ – لغة الطفل العربى وثقافته .

٢ – وضع الأم (والبيت العربى فى عمومه) لغويا وثقافيا .

٣ – التعليم ومراحله ومناهجه ورجاله .

٤ – لغة الصّحافة ووسائل الإعلام المكتوبة والمنطوقة بوجه خاص .

٥ – لغة الدواوين والمؤسسات ، والأحاديث الرسمّية الموجهة إلى الجماهير .

٦ – أثر اللغات والثقافات الأجنبية فى بنائنا اللغوى والثقافى .

٧ – مسح لغوى ثقافى شامل لفئات المجتمع العربى .

٨ – االكتاب العربى العام ، على مستوياته اللغوى والثقافية .

وفيما يلى بعض التوصيات التى نزعم أنها تُمهد الطريق لتجويد لغوى ثقافى عامّ ، من شأنه أن يصل بنا – إن عاجلا أو آجلا – إلى نوع من الانسجام والتناسق فى حياتنا اللغوية والثقافية :

١ – تشجيع الخاصة والعامة على توظيف اللغة العربية الصحيحة نطقا وأداء . فاستعمال الكلام الحىّ المنطوق خير سبيل لاكتساب الخبرة والطاقة اللغوية .

٢ – القدوة الصالحة قولا وفعلا فى الأداء اللغوى والسلوك الثقافى ولا يخدعنا رفعُ الشعارات والكلامُ الأجوف ، دون مواكبة العمل الطيب لهذه الشعارات . وهذه التوصية موجّهةٌ بصفة خاصة ، إلى كلّ من يتولوّن مسئولية القيادة فى مواقعهم ، كرجال الحكم والسياسة والدعاة والمربّين ورجال الجامعات وأولى الرأى والفكر .

٣ – توظيف دُور الثقافة الجماهيرية توظيفا صالحا ، بوضع خطط تثقيفية واضحة المعالم . ويدخل فى هذا الإطار حُسن استغلال النوادى الأدبية والاجتماعية فى هذا الشأن .

٤ - نحن قوم نسمع ولا نقرأ ، ومن ثم ينبغي التشقيفُ عن طريق الحواس ، وأعني بذلك السمَع والبصر ، بوجه خاص . علينا أن نشجع العامة على تذوق الفن الرفيع من موسيقا وأغانٍ ، وأن نسهّل لهم الرحلاتِ والأسفار وأن نعوّدهم على هذا النشاط .

٥ - العمل على نشر الكتاب العام وتوزيعه بأسعار مناسبة .

وأخيرا ، وليس آخرا العودُ إلى التراث العربى الإسلامى واستنطاقُه وتوظيفُه توظيفا عمليّا مناسبا ، فى حدود جوهريّاته وحاجاتنا منه ، وما أشدّ حاجتنا إليه ! ! .

إن تراثنا قديم حديث : قديم التاريخ ، حديث الأثر والنفع . إنه ممتدٌ عبرٌ فترات الزمن ومنتشرةٌ قيمُه ومبادئه وأفكارُه بين ظهرانينا ، وإن كان لا يعى ذلك غيرُ العارفين . فحريٌ بنا أن نلتفت إلى هذا التراث القديم المتجدد ، وننظرَ فيه نظرة جديدة ، بتقريبه وتهذيبه وإخراجه فى صورة أمينة ، تُبقى على جواهره وتجّود فى مادته ، بحسن الانتقاء والعرْض والتقديم إلى السوق العربية العامّة .

وليس يعنى هذا بحال أن ننكفىء على هذا التراث وحده ، وننصرف عما يجرى فى العالم من حولنا من معارفَ وخبرات وثقافات . فذلك قول مرفوض جملة وتفصيلا . وحتْم علينا فى هذه المرحلة أن نسترشد بآثار الآخرين ونقتبس منهم ونأخذ عنهم ، ولكنْ فى حدود ما يحفظ لبنائنا العربى (لغويا وثقافيا واجتماعيا) كيانه وهويته .

وحَتْم كذلك أن يعلم الناس أن استمرارية الأخذ والنقل مزلق خطير ، قد يؤدى بنا إلى " الترهل " أو التبعية أو فُقدان الهوية أو الوقوع فى مأزق التغريب . إننا - فى إيجاز موجز - ننادى بالاسترشاد بالقديم فى أصالته وبالحديث فى جدّته وطرافته . ولا ينبغى أن نقع فى براثن التبعيّة ، فنفقدَ طاقة الإبداع والابتكار فينا ، ونظلّ عالةً على غيرنا أو حلقةً هشّة فى سلسلة أجنبية طويلة ، كلما انصرفَتْ يمينا أو شمالاً تحرّكنا معها ، وربما سقطنا على الأرض ضعفاً وعجزا عن ملاحقة المسيرة .

ولعلنا ندرك مأزق التبعيّة هذا فى محيط بعض العلوم ، كالطب والهندسة وما إليهما . لقد وصلنا الآن - بعد صحوة نسبية - إلى موقف الحيرة : أنعرّب هذه العلوم أم نتركُها وشأنها حتى لا ينقطعَ حبل الوصل بيننا وبين

الأقوام الآخرين ؟ . تباينت الآراء وتصارعت وجهات النظر حول هذه القضية .

وإذا كان لنا من رأى فى هذا الشأن ، فنوجزه فى كليمات قصيرات ؛ فنقول : إن تعريبَ العلوم ، أى تناولها باللغة العربية بحثا وتأليفا وتعليما ، أمل يراود كل مخلص يعتز بلغتِه وقوميته ، ولكن الأمر يحتاج إلى تخطيط وأناةٍ فى الإنجاز والتنفيذ . ذلك أن القضية ليست قضيةً لغوية فحسب ، إنها فى الأساس قضية علمية ثقافية . يحتاج الأمر فى رأينا إلى تعريب الفكر أولا . فإذا فكرّت عربيًا خرجتْ مادتك عربية . وهذا يتوقف على استيعاب المادة العلمية وهضمها ، وعلى إمكانية تناولها تناولا جديدا بشىء من الإبداع والإضافة ، بحيث تصبح نتاجا أو نسيجا عربيا . وإخراج هذا النسيج فى خلقٍ وتقدير عربى يحتاج لا محالة إلى لغة عربية سليمة ، قادرة على التعبير شكلا ومضمونا . فإذا ما مُنحنا هذين الجناحين (جناح الهضم والاستيعاب والإضافة وجناحَ السيطرة على اللغة العربية ،) وتأكّدنا من سلامتهما ، فليبارك الله فى آمالنا ويمنحْنا التوفيق فى إنجاز هذه الآمال .

وأظن أن الوقت قد حان للتفكير الجادّ فى هذه القضية على مستوىً قومى ، والأمر مع ذلك يحتاج منا إلى وقفة متأنية ، ليس هذا المقامُ سياق تفصيل القول فيها . فإلى فرصة أخرى إن شاء الله .

كمال محمد بشر
عضو المجمع